

(١٤)

## التوكل

### الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

كنا قد تحدثنا عن شعب الإيمان ، وتحدثنا عن بعض الشعب ، واليوم نتحدث عن شعبة أخرى وهي : التوكل على الله تبارك وتعالى .

### معنى التوكل على الله :

والتوكل على الله : أن تجعل الله تعالى وكيلاً لك ، تسلم إليه زمام أمورك ، وتفوض إليه كل شؤونك ، وهو عمل من أعمال القلوب ، وخلق من أخلاق الإيمان ، ومنزلة من أعظم منازل الدين ، حتى قال الإمام ابن القيم <sup>(١)</sup> : هو نصف الدين ، والنصف الثاني : الإجابة ، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود:٨٨) ، ﴿ وَإِلَّاكَ نَعْبُدُ وَإِلَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) ، فالتوكل هو الاستعانة ، والإجابة هي العبادة .

التوكل استعانة بالله ولجوء إلى الله عز وجل ، واعتصام بحصنه الحصين وركنه الركين في مواجهة الأزمات والملمات التي تلم بالإنسان .

### أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالتوكل :

ولهذا أمر الله تعالى به رسوله ﷺ في عشر آيات من كتابه ، فقال سبحانه :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء:٨١) .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (النمل:٧٩) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (الشعراء:٢١٧) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۗ وَكَفَىٰ بِهِ بُدْثُوبِ

عِبَادِهِ حَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٨) .

(١) في مدارج السالكين (١١٨/٢) ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (المزمل: ٩) .  
 ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) .  
 ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(الأنفال: ٦١) .

﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (هود: ١٢٣)

التوكل من أخلاق الأنبياء :

التوكل هو خلق رسول الله ﷺ ، وهو خلق الأنبياء والرسل من قبله . الأنبياء والرسل واجهوا أقوامهم المكذبين لهم بمقام التوكل على الله عز وجل ، ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ آبَاؤُنَا فَأَنْتُونَا بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ ﴾ (إبراهيم: ١٠) ، فكان رد الرسل عليهم : ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

(إبراهيم: ١٢، ١١) .

بالصبر والتوكل ، يواجه الأنبياء أقوامهم المعاندين .

فالتوكل خلق المؤمنين ، وخلق النبيين جميعاً .

نوح - عليه السلام - قال لقومه : ﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (يونس: ٧١) .

وكذلك قال هود لقومه : ﴿ فِكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ (هود: ٥٦، ٥٥) . وكذلك قال موسى لقومه : ﴿ يَنْقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَجِنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (يونس: ٨٤-٨٦) .

كل الأنبياء كانوا متوكلين على الله عزَّ وجلَّ في مواجهة الباطل المتجبر المدجج بالقوة ، المسلح بالمال .

### التوكل والأسباب :

وليس من شأن التوكل ترك الأسباب . التوكل عمل من أعمال القلوب ، فلا ينافي أن تأخذ الجوارح بالأسباب التي قدرها الله والتي شرعها لعباده . ولهذا حينما جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ومعه ناقته وقال : يا رسول الله ، أأدع الناقة وأرسلها طليقة حرة ، وأتوكل على الله؟ أم أقيدها وأتوكل؟ فقال النبي ﷺ : « قِيدْهَا وَتَوَكَّلْ »<sup>(١)</sup> . هذا نصُّ حاسم في مراعاة الأسباب .

### ترك الأسباب مناف للسنة :

أما الذي يحكي عن بعض الصوفية الذين غلبت عليهم أحوالهم فتركوا الأسباب ، فهذا مناف لسنة رسول الله وسنة الأنبياء من قبله .

فرسول الله ﷺ قد أعدَّ العدة ، وهياً الأسباب ، وعمل كل ما يستطيع في حياته . في غزواته أرسل العيون والطلائع لاستكشاف أمر الأعداء ، وكان إذا أراد غزوة ورى بجهة غيرها حتى يعمي على الأعداء فلا يعرفون إلى أي جهة يقصد ، لم يخالف ذلك إلا في غزوة تبوك لخطرها وبعد الأعداء عنه .

كان هذا شأنه ﷺ ، وكان يظهر بين درعين أحياناً (يلبس درعين في الحرب) ، وقد اختبأ في الهجرة ، واختبأ في غار بعيد عن أعين المشركين ولم يكن في طريق المدينة ، في الجنوب لا في الشمال ، وادخر لأهله قوت سنة من الحبوب ، هكذا كان عليه الصلاة والسلام .

### الرسول والأخذ بالأسباب في أمور الدنيا والدين :

لم يكن يهمل أمر الأسباب في أمر الدنيا ولا أمر الدين ، حتى أنه بعد الهجرة إلى المدينة طلب إحصاء لأصحابه ، قال لهم : « أَحْصُوا لِي كَم يَلْفُظُ الْإِسْلَامَ »<sup>(٢)</sup> ،

(١) رواه ابن حبان في الرقاق (٧٣١) ، وقال الأرنؤوط : حسن ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٧٠) ، عن عمرو بن أمية .

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٤٩) ، وأحمد (٢٣٢٥٩) ، عن حذيفة .

فأحصوا له فكانوا ألفاً وخمسمائة رجل . أراد أن يعرف مقدار القوة الضاربة عنده ،  
ليبني خطته على أساسها .

وفي بعض الروايات : « اكتبوا لي »<sup>(١)</sup> ، فكان إحصاء كتابياً منظماً ، وهو أول  
إحصاء يعرفه التاريخ<sup>(٢)</sup> .

وكان عليه الصلاة والسلام ينظّم أمر المستقبل ، فما كان يدع الأمور تجري في  
أعنتها ، وإنما يأخذ لكل أمر عدته التي أمر الله بها ، وقد قال تعالى في كتابه :  
﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ  
وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴾ (الأنفال: ٦٠) ، ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ  
ءَامَنُوا خُدُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾ (النساء: ٧١) . وفي صلاة  
الحرب - صلاة الخوف - أمر الله المسلمين أن يكون جزء منهم في الصلاة وجزء  
منهم في مواجهة العدو ، وأمر الجزء الذي يصلي أن يأخذ أسلحته معه :  
﴿ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتِهِمْ فِإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وِرَآئِكُمْ وَلِتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى  
لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ ۗ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ  
تَغَفَّلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (النساء: ١٠٢) .  
ولهذا كانت سنة النبي ﷺ اتخاذ الأسباب ، وسنة الرسل من قبله اتخاذ الأسباب .

نماذج لبعض الأنبياء في أخذهم بالأسباب :

نجد نوحاً عليه السلام قد أمره الله تعالى بأن يصنع الفلك ليحمل فيها من آمن  
معه ، ويحمل فيها من كل شيء زوجين .

ونجد يعقوب عليه السلام يقول لابنه يوسف وقد قصَّ عليه الرؤيا :  
﴿ لَا تَقْضُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠) ، عن حذيفة .

(٢) أقرأ ما كتبه الشيخ القرضاوي عن استخدام النبي ﷺ لأسلوب الإحصاء في كتابه (الرسول والعلم) ،  
تحت عنوان : (الرسول والعلم التجريبي) .

مُيَسَّرٌ ﴿ (يوسف: ٥) . ويقول لأبنائه وهم ذاهبون إلى مصر : ﴿ يَبْنِي لَّا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (يوسف: ٦٧) . سواء كان يخاف عليهم من العين كما قال أكثر المفسرين ، أو يخاف عليهم أمرا آخر يتعلق بالسياسة ، فهو يريد أن يحتاطوا ولا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة .

ونجد يوسف عليه السلام يضع خطة للخروج بمصر وما حولها من مازق القحط والمجاعة ، فيضع خطة خمس عشرية في خمس عشرة سنة يستطيع بها أن ينجو بمصر وما حولها من أزمة القحط وأزمة المجاعة التي حدثت في تلك الأيام . وفعلا رسم الخطة ، ووضع هو على رأسها لتنفيذها . وقد نجى الله مصر وما حولها ببركة هذا التخطيط مع توكله على الله تبارك وتعالى .

ونجد موسى عليه السلام يُوحى إليه ربه : ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴾ (الشعراء: ٥٢) . لماذا أمره الله أن يسري بهم بالليل؟ ليكون الليل ستارا لهم . وهكذا نجد موسى حينما سافر مع صاحبه - مع فتاه يوشع بن نون - يأخذ معه غداءه ويقول : ﴿ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ (الكهف: ٦٢) .

ونجد فتية أهل الكهف يأخذون معهم - حينما أرادوا دخول الكهف - بعض الورق (أي : النقود الفضية) ويقولون حين استيقظوا : ﴿ فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ بَورِقَكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١٩) ، كما أخذوا معهم كلبهم للحراسة .

وهكذا نجد القرآن الكريم مملوءاً بالأمر برعاية الأسباب ورعاية السنن الكونية : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك: ١٥) ، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: ١٠) .

وهكذا كان المسلمون ينتشرون في الأرض ، يعملون ويبيعون ويشترون قبل الصلاة ، فإذا سمعوا النداء تركوا البيع وأقبلوا على الصلاة وعلى ذكر الله ، فإذا فرغوا من الصلاة انتشروا في الأرض مُبتغين من فضل الله . وحينما رأى عمر بعض الناس في المسجد بعد الصلاة قابعين سألهم : من أنتم؟ قالوا : نحن المتوكلون على الله . قال : بل أنتم المتأكلون ، أما سمعتم قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: ١٠) . لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني . وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وعلاهم بدرته وأخرجهم من المسجد .

### من ثمار الأخذ بالأسباب :

إن الأسباب مشروعة وأتخاذ الأسباب ورعايتها أمر مشروع ، وهذا ما كان عليه المسلمون في الأزمنة الأولى . وبرعاية هذه السنن وأتخاذ هذه الأسباب أقاموا حضارة العلم والإيمان ، أقاموا أعظم حضارة في التاريخ ، حضارة جمعت بين الربانية والإنسانية ، حضارة جمعت بين الجانب المادي والجانب الإيماني والجانب الأخلاقي . هذا ما صنع المسلمون حينما وعوا عن الله ورسوله ، وفقهوا عن الله ورسوله .

هذا هو أمر التوكل :

التوكل أن تأخذ بالأسباب وتدع النتيجة لرب الأرباب ، أن تبذر الحب وترجو الثمار من الرب . هذا هو التوكل على الله تبارك وتعالى .

### متى تذمُّ الأسباب :

ولا تذم الأسباب إلا إذا كان الإنسان مُعولاً عليها وحدها . إذا كان مُعولاً عليها دون مسبب الأسباب ، إذا كان يعتقد أن راتبه وحده هو الذي يطعمه ، ويكفيه حاجته ، وأنَّ رئيسه هو الذي يجلب له الخير ، فهذا إنسان يتوكل على الوزير ، أو يتوكل على المدير ، أو يتوكل على الأمير ، أو يتوكل على الرئيس ، أو يتوكل على أرضه ، أو يتوكل على دكانه ، أو يتوكل على معاشه . لا ، ليكن توكلك على الله عزَّ وجلَّ . لا تتوكل على شيء ، أو على شخص ، فقد يذهب هذا الشيء ،

وهذا الشخص ، اليوم أو غدا أو بعد غد ، كما قال ابن عطاء : « إن أردت أن يكون لك عزٌّ لا يفنى ، فلا تستعزَّنْ بعزِّي يفنى »<sup>(١)</sup>.

فمن هنا ينبغي أن لا يعول الإنسان على الأسباب وحدها ، يستخدمها أداة في يده ووسيلة مشروعة ، ولكن اعتماد قلبه على الله عزَّ وجلَّ مسبب الأسباب . هذا ما ينبغي للإنسان أن يعمل به . المسلم يعمل ما يستطيع ويدع الباقي على ربه سبحانه ، فالقدرة المطلقة تكمل ما تعجز عنه الأسباب المحدودة .

### صور من التوكل على الله :

نجد موسى عليه السلام حينما أمره الله تعالى أن يسري بعباده ليلاً ، فسرى بعباد الله من بني إسرائيل ، وخرجوا ، وخرج فرعون وجنوده وراءهم ، حتى وصل موسى البحر ، وصار البحر أمامه والعدو من خلفه ، ولا حول له ولا طول ، ليس معه العدد ولا القوة التي يواجه بها فرعون وأجناده . هنا قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (الشعراء: ٦١) سيدركنا فرعون وجنوده لا محالة ، فماذا قال موسى؟ قال موسى في ثقة المؤمن وإيمان الوائق : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢) . تذكر موسى أن الله معه ، فقد قال له حينما بعثه إلى فرعون : ﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ (طه: ٤٦) ، فقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢) : سيهديني لحلٍّ ولمخرج ، لا أعرف ما هو ؟ ولكنني وائق منه ، مؤمن به .

هنالك أوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ (الشعراء: ٦٣) . وماذا تفعل العصا ببحر هائج الأمواج . بحر متلاطم؟ ولكنه نفذ الأمر ، فضرب بعصاه البحر ﴿ فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء: ٦٣) . وهنا جاء فرعون بجنوده ليجري وراء موسى ويركض من خلفه ، وعبر موسى بقومه ، ثم أطبق البحر على فرعون وجنوده .

على الإنسان المؤمن أن يعمل ما تتيحه له الأسباب ويدع الباقي لله سبحانه وتعالى .

(١) الحكمة السادسة والثمانون من الحكم العطائية .

## حُسن التدبير مع التوكل :

يتجلى ذلك في وضع النبي عليه الصلاة والسلام في أمر الهجرة فقد رتب فأحسن الترتيب ، ودبر فأحكم التدبير . هيأ الرواحل ، وهيأ الرفيق الذي يصحبه في الهجرة : أبا بكر ، وهيأ الدليل الذي يده على الطريق : عبد الله بن أريقط ، وهيأ المخبأ الذي يختبئ فيه حتى يخف الطلب عنه : غار ثور في جنوب مكة ، وهيأ من يأتي له بالزاد والأنباء : أسماء بنت أبي بكر ، وهيأ من يعفي على آثارها حتى لا تتبع أقدامها : عامر بن فهيرة . فعل كل ما يمكن أن يخطر ببال بشر من حُسن الترتيب والتدبير ، ولكن القوم مع هذا استطاعوا أن يصلوا إلى الغار الذي فيه النبي عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبو بكر ، وقال أبو بكر في إشفاق على الدعوة ومصيرها : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . يعني يكفي أحد هؤلاء أن ينظر إلى ما تحت قدميه ليرآنا في الداخل .

فماذا قال له النبي عليه الصلاة والسلام؟ قال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »<sup>(١)</sup> أو كما قال القرآن : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) . ما أشبه هذه الكلمة بكلمة موسى : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢) . بين الكلمتين قرون ، ولكن كلتاهما تصدر من مشكاة واحدة .

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ (التوبة: ٤٠) .

## قوة التوكل على الله عز وجل :

إن التوكل على الله عز وجل يورث المؤمن قوة ، هذه القوة التي رأيناها في محمد ﷺ وهو في الغار ، وفي موسى عليه السلام وهو أمام البحر ، ووجدناها عند

(١) متفق عليه : رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١) ، كلاهما في فضائل الصحابة ، كما رواه أحمد (١١) ، والترمذي في التفسير (٣٠٩٦) ، عن أبي بكر الصديق .

هود عليه السلام وقد خوفه قومه من المشركين أن تعتريه آلهتهم بسوء فقال لهم :  
﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٥٤-٥٦) مِنْ دُونِهِ فِكَيْدُونِي جَمِيعًا نَمُّ  
لَا تُنظَرُونَ ﴿٥٤﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا  
إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ (هود: ٥٤-٥٦).

وجدناها عند شعيب ، وقد هدده قومه المشركون : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ  
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ فماذا قال شعيب؟ ﴿ قَالَ أُولَئِمَّ  
كُنَّا كَرِهِينَ ﴾ ﴿ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَدْنَا اللَّهَ مِنْهَا  
وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ  
تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَمَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ حَمِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٨٨، ٨٩) .  
بهذه القوة واجه هؤلاء الأنبياء قومه المشركين .

إن الذي يتوكل على الله عز وجل يعتصم بقوة كبرى ، هي قوة الرب العظيم  
جبار الأرض والسماوات ، فهو لا يبالي بخلقه ، ولا يبالي بالناس قلوبا أم كثروا ،  
صغروا أم كبروا .

انظر إلى ذلك الشاب الذي ركب سيارته المملوغة ، وصدم بها الباص الإسرائيلي  
وحدث ما حدث من قتل نحو عشرة وإصابة أكثر من خمسين . ما الذي جعله  
يفعل هذا؟ إنه التوكل على الله عز وجل ، إنه لا يبالي أوقع على الموت أم وقع  
الموت عليه .

هذه هي قوة التوكل على الله عز وجل .  
ومن هنا كان المتوكل من أقوى الناس ، وفي الأثر : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَى  
النَّاسِ فَلْيَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »<sup>(١)</sup> .

(١) رواه الحاكم في الأدب (٢٧٠/٤) ، وقال : هذا حديث صحيح ، قد اتفق هشام بن زياد النصري ،  
ومصادف بن زياد المدني على رواية عن محمد بن كعب القرظي ، والله أعلم . ولم أستجز  
إخلاء هذا الموضوع منه فقد جمع أدباً كثيرة ، وقال الذهبي : هشام - وهو ابن زياد - متروك ،  
ومحمد بن معاوية كذبه الدارقطني فبطل الحديث ، قال المناوي في فيض القدير (١٩٣/٦) : رواه  
ابن أبي الدنيا في الأخلاق عن ابن عباس ، ورمز - أي السيوطي في الجامع الصغير - لحسنه ،  
وضعه الألباني جلتاً في الضعيفة (٤٦٠٢) ، عن ابن عباس .

## التوكل على الله يورث المؤمن عزّة النفس :

وبجانب القوة ، فإنّ التوكّل على الله يورث المؤمن عزّة النفس ، يشعره بأنه عزيز لأنه متوكّل على عزيز حكيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٤٩) ، عزيز : لا يذل من لاذ بجانبه ، حكيم : لا يضيع من وثق بتدبيره ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (الشعراء: ٢١٧) .

فهذا هو شأن المتوكل ، إنه إنسانٌ عزيزٌ . إذا ذلّ الناس أمام لقمة العيش أو أمام نفوذ الأقوياء والأغنياء وأهل الحكم والسلطان ، فإنه لا يذل ، ولا يحني رأسه ولا يطأطئ جبهته إلا لله عزّ وجلّ .

اجعل بربك شأن عزك يستقر ويثبتُ فإذا اعتزرتَ بمن يموت فإن عزك ميت  
اجعل عزتك بالله تكن عزيزاً : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾  
(فاطر: ١٠) ، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾  
(المنافقون: ٨) .

## من آثار التوكل : الرضا :

فالمتوكل يرضى بما قَسَمَ الله له ، وبما قضى الله له ، ولذلك لما سُئِلَ بعضهم : ما هو التوكل؟ قال : أن ترضى بالله وكيلاً : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء: ١٧١) .

إذا رضيتَ بالله أصابك الرّوح والفرح كما في قول ابن مسعود : « إنَّ الله عزَّ وجلَّ بقسطه جعلَ الفرَحَ والرّوحَ في الرّضى واليقين ، وجعلَ الغمَّ والحزنَ في السخط والشك »<sup>(١)</sup> .

## ومن آثار التوكل : سكينه النفس وطمانينة القلب :

فالمتوكل آمنٌ إذا خاف الناس ، مطمئنٌ إذا قلق الناس ، راضٍ إذا سخط الناس ، يقف على أرض صلبة ، بتوكّله على الله عزّ وجلّ ، لا يخشى على الرزق ، ولا يخشى على الأجل ، ولا يخشى على نفسه ، ولا يخشى على أحد من أهله ، ولا ممن حوله ممن يحب ، لأنه يعلم أنّ الرزق معلوم ، والأجل محتوم ، وأنّ

(١) رواه هناد في الزهد (٥٣٥) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧٥/٣٣) ، موقوفًا ، على ابن مسعود .

أحدًا لا يستطيع أن يأكل من رزقك مثقال حبة ، وأنَّ أحدًا لا يستطيع أن يقدم أجلك أو ينقصه ساعة أو لحظة : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون: ١١).

ولهذا حينما ذهب بعض الناس - أيام الفتح الإسلامي - إلى بعض المجاهدين يقولون لهم : كيف تجاهدون وكيف تتركون أولادكم من بعدكم؟ قالوا لهم : (علينا أن نجاهد في سبيله تعالى كما أمرنا ، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا) . ويأتون إلى امرأة المجاهد يُخوفونها : ماذا ترك لك أبو فلان ؟ وكيف تعيشين ؟ ومن أين ترزقين ؟ فتقول لهم : إنَّ أبا فلان - تعني زوجها - منذ تزوجته عرفته أكلاً وما عرفته رزاقاً ، فلئن ذهب الأكال لقد بقي الرزاق ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٨) ، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (هود: ٦).

ومن آثار التوكل : الأمل :

إنه يزرع الأمل في القلوب والرجاء في النفوس ، فإذا الإنسان المتوكل يرى الحياة وقد ابيضَّ سوادها ، وأشرق فجرها ، وذهب ليلها ، وزال غمها وكرهها . يرى الفرج بعد الكرب ، واليسر بعد العسر ، والشفاء بعد المرض ، وهكذا : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾ ﴾ (الشرح: ٥، ٦)، وإنَّ دوام الحال من المحال .  
وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى دَرْعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ  
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتِهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظْنُهَا لَا تُفْرَجُ (١)

ولهذا وجدنا إبراهيم عليه السلام حينما جاءته الملائكة مبشِّرين له بغلام عليم ، ﴿ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ ﴿ قَالَوا بَشْرْتِكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (الحجر: ٥٤-٥٦).

ويعقوب عليه السلام يقول لأبنائه وهم ذاهبون إلى مصر في جولة من جولاتهم : ﴿ يَبْنِيْ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ

(١) من شعر الإمام الشافعي .

إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿ (يوسف: ٨٧) . بعد مضي سنين  
وسنين على يوسف ، لم ييأس من أن يجمعه الله به . وقبل ذلك قال : ﴿ عَسَى اللَّهُ  
أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (يوسف: ٨٣) . هذا هو شأن  
المتوكل على الله .

شأن المتوكل على الله عز وجل أنه دائماً في سكينه نفس ، أنه قوي ، أنه عزيز ،  
أنه راض بما قسم الله عز وجل ، أنه أمل في رحمة الله وفي غدٍ أفضل . هذا هو  
شأن الإنسان المتوكل على ربه عز وجل .  
من عرف ربه توكل عليه :

فما الذي يجعل الناس يتوكلون بعضهم على بعض ولا يتوكلون على الحي  
الذي لا يموت؟ إن من عرف ربه توكل عليه ، لأنه متوكل على حي قيوم لا يموت ،  
ولا يغفل ولا ينام ، بيده مقاليد السموات والأرض ، خزائن كل شيء بيده .

من عرف مقام الله عز وجل اعتمد عليه وتوكل عليه . ومن وثق بالله عز وجل  
فإنه لا بد أن يعتمد عليه ويتوكل عليه ، لأنه يثق بأنه سبحانه هو الذي يضر وينفع ،  
ويعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل ، ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا  
كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ  
فَوْقَ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿ (الأنعام: ١٧، ١٨) .

ما يمنع الناس من التوكل على الله :

الجهل بمقام الله تعالى ، والجهل بعجز النفس وعجز الآخرين ، هو الذي يجعل  
الناس لا يعتمدون على الله سبحانه وتعالى .

الجهل بقيمة الدنيا ، وحب الدنيا والاعتزاز بها ، والركون إليها ، والركون إلى  
الخلق ، هو الذي جعل الناس لا يتوكلون على الله عز وجل .

ما أحوجنا نحن المسلمين في هذا العصر إلى أن نضع أيدينا في يد الله ربنا ،  
وأن نتوكل عليه سبحانه في مقاومة أعدائنا ، وتحرير أوطاننا ، واستعادة مقدساتنا ،  
وتحكيم شريعتنا في أرضنا .

## التوكل على الله من أجل النصر ومواجهة القوى العاتية :

ما أحوجنا - نحن المسلمين - إلى أن نتوكل على الله ونحن نواجه القوى العاتية . فراغنة الأرض ، وهوامينها ، وقوارينها ، والطغاة فيها . لكن معنا القوة التي لا تقهر ، والعلم الذي لا يجهل ، والإرادة التي لا يحدها حد ولا يعجزها ضد ، إنما أمره سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون .

إذا أردنا أن نُحرر فلسطين ، إذا أردنا أن نُحرر البوسنة والهرسك ، إذا أردنا أن نُحرر الصومال ، ونُحرر أريتريا ، ونُحرر الفلبين ، ونُحرر الحبشة ، ونُحرر الأرض التي يحكمها غير المسلمين ، فعلينا أن نتوكل على ربنا سبحانه وتعالى .

إذا توكلنا عليه فإنه سيعطينا مفاتيح القوة لهذا الكون كله ، سيعطينا مفاتيح القوة وسينزل علينا بركات من السماء والأرض ، ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ﴿ (التوبة: ٥١، ٥٢) .

إنما انتصر رسول الله ﷺ وأصحابه بهذا الإيمان القوي . . . بالتوكل على الله . بإخلاص العبادة والاستعانة بالله وحده . بمقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ﴿ (الفاتحة: ٥) . بمقام ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ ﴿ (هود: ٨٨) . بهذا وحده انتصروا على عدو الله تعالى وعدوهم .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، فعلينا أن نتوكل على الله ، وأن نضع أيدينا في يد الله عز وجل ، وأن نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهين لنا من أمرنا رشداً ، ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ ﴿ (الأعراف: ٨٩) ، ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ (المتحنة: ٤، ٥) . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

\* \* \*

(١٥)

## الشكر

### الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

### العبادات القلبية :

لا زلنا نتحدث عن أعمال القلوب . عن العبادات القلبية التي يغفلها الكثير من الناس ولا يهتمون إلا بالعبادات الظاهرة .

تحدثنا عن الورع ، وتحدثنا عن الزهد ، وتحدثنا عن التوكل ، وكلها من مقامات الدين ، ومن أبواب الإيمان واليقين . ومن طاعات القلوب ، وتحدث اليوم عن الشكر . شكر الله تبارك وتعالى على نعمه .

### فضل منزلة الشكر :

والله سبحانه وتعالى أمر بالشكر ، وأثنى على أهله ، وجعله من أخص أوصاف عباده المصطفين الأخيار من المرسلين والصالحين ، ووصف نفسه بأنه شاكر وشكور .

يقول الله تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٦) ، ويقول تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: ١٥٢) ، ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ (لقمان: ١٤) ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان: ١٢).

### الشكر من أخص أوصاف الصالحين :

وصف الله نوحاً عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء: ٣) ، ومدح خليله فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَّهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (النحل: ١٢٠، ١٢١) .  
﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَّهُ ﴾ فوصفه بالشكر .

الشكر من أخصر أوصاف عباد الله الصالحين .

### قَلَّةُ الشَّاكِرِينَ فِي الْخَلْقِ :

ولعلوا رتبة الشكر قال سبحانه : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ (سبأ: ١٣) الذي يعرف قيمة النعمة ويعرف فضل المنعم ويؤدّي حقه .

وعرف ذلك إبليس اللعين ، فقال : ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف: ١٦) ، قالوا : هو طريق الشكر ، ﴿ ثُمَّ لَا تَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧) .

وقد صدق ظن إبليس ، فأكثر الناس لا يشكرون ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٣) .

### أركان الشُّكْرِ :

الشكر مقام من مقامات الدين ، وبات من أبواب الإيمان . والشكر له أركان ثلاثة :

- ١- عمل بالقلب .
- ٢- وقول بالسان .
- ٣- وحركة بالجوارح والأركان .

### شكر القلب :

أول شيء : شكر القلب . ولهذا حينما نزلت آية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤) قالوا : فأبي المال تتخذ يا رسول الله؟ قال : « ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً »<sup>(١)</sup> .

(١) رواه أحمد (٢٢٤٣٧) ، وقال مخرّجوه : حسن لغيره ، والترمذي في التفسير (٣٠٩٤) ، وقال : حديث حسن . وابن ماجه في النكاح (١٨٥٦) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٧٦) ، عن ثوبان .

فأصل الشكر في القلب . . . عمل قلبي ، أن تعترف من قرارة نفسك وسويداء قلبك بقيمة النعمة ، وتعترف بفضل من أنعم بها عليك .

شكر الله : أن يكون لك قلبٌ شاكر ، وأن تعرف أن كلَّ ما بك من نِعَمٍ فإنَّما مصدره الله عزَّ وجلَّ ، ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣).

أول ما ينبغي على الإنسان أن يعرفه : أن نعم الله سبحانه وتعالى عليه لا تعدُّ ولا تحصى ، ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٤) .

### معرفة قدر النعم :

من آفات هذا العصر : أن الناس لا يقدرُون نِعَمَ الله تعالى حقَّ قدرها . كان آباؤنا وأجدادنا من قبلنا يعرفون النعمة حتى في اللقمة الخشنة ، وحتى في شربة الماء ، يأكل أحدهم الطعام القليل ، والخبز الخشن ، ويشرب من القلَّة أو من القربة ، ثم يقول : الحمد لله ، اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال !

الناس الآن تفيض عليهم النعم فيضاً ، يعيشون في النعم من رؤوسهم إلى أقدامهم ، ولا يحمدون الله تبارك وتعالى . لا يعرفون للنعم قدرها ، استسهلوا هذه النعم ، جاءتهم دون أن يكدحوا أو يتعبوا في تحصيلها .

انظروا هنا : أصل النعم التي يعيش فيها الناس في هذه البلاد (النفط . البترول) . من الذي صنع هذا البترول؟ هل أنتم خلقتموه وأنشأتموه؟ لا والله . الله هو الذي صنعه في باطن الأرض ، وأخرجه لكم نعمةً سابغةً لم تكدحوا فيها بيمين ، ولم تعرقوا فيها بجبين ، هل يقول الناس : الحمد لله ؟ لا .

نحن في عصر قلَّ فيه الشاكرون ، كثر فيه الكافرون بنعمة الله عزَّ وجلَّ . ما عاد الناس يقدرُون النعمة أبداً .

أول الشكر : أن تعترف بقدر النعمة ، وكثيرٌ من الناس لا يعرف النعمة إلا إذا زالت عنه .

كم من النعم يحملها الإنسان؟ نِعَمٌ كثيرةٌ .

دخل أحد الوعَّاظ على أحد الخلفاء ، فقال له : عظمي . فقال : يا أمير المؤمنين ، هب أنك كنت في صحراء فعطشت ولم تجد ماء إلا عند رجل كان معه كأس من ماء ، فقال لك : أعطني نصف ملكك وأعطيك هذه الكأس لترتوي بها . فقال : أعطيه نصف ملكي ولا أموت . قال : هب أن هذا الماء حُصر فيك ولم تستطع أن تخرجه ، فجاءك طبيب وقال لك : أعطني نصف ملكك الباقي هذا وأنا أداويك ليخرج البول منك . فقال : أعطيه . قال : فانظر ملكاً لا يساوي شربة وبولة<sup>(١)</sup> ! نحن نشرب الماء بارداً زلالاً ، ولكننا لا نعرف قيمته ، لا نعرف قيمة ما عندنا من نعم .

**من نعم الله عليك : أنه خلقك إنساناً :**

النعم كثيرة وكثيرة جداً .

أول نعمة أنعمها الله تعالى : أنه خلقك ، ولم تكن شيئاً مذكوراً إذ أخرجك من العدم إلى حيز الوجود .

ثم إنه خلقك بشراً سوياً ، لم يخلقك حيواناً أعجم ، لم يخلقك تيساً ولا حماراً ولا بقرة ولا ثوراً . خلقك إنساناً ، كرمك بهذه الإنسانية .

ومعنى أنه خلقك إنساناً : أنه علمك البيان ، ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ٤، ٣) ، البيان النطقي باللسان : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۖ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۗ ﴾ (البلد: ٨، ٩) ، والبيان الخطي بالقلم : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۗ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ٤، ٥) .

معنى أنه خلقك إنساناً : أنه ميزك بالعقل ، أعطاك هذا العقل الذي تُسخر به الأشياء من حولك ، وتتميز به على الحيوانات التي هي أكبر منك حجماً وأشد منك قوة .

هذا كله من فضل الله تعالى ومن نعمه عليك .

(١) رواه ابن جرير في تاريخه (٢٢/٥) ، قصة حدثت بين هارون الرشيد وابن السماك .

من نعم الله عليك : تسخير الكون لمنفعتك :

سخر لك هذا الكون بما فيه ، جعله في خدمتك . السماء بشمسها وقمرها ، ونجومها في خدمتك . الأرض بسهولها وجبالها ووديانها وبحارها وأنهارها ، ونباتها وأشجارها ، وحيوانها ، كل هذه في خدمتك : ﴿ مَتَعْنَا لَكُمْ وَلِأَنْتَعِمَ كُمْ ﴾ (النازعات: ٣٣) ، ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ ﴿ يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٣٣-٣٥) .

حينما تزرع الحب ، من علم الحبة أن تأخذ غذاءها من التربة ، وأن تمتص ما تحتاج إليه دون ما لا تحتاج إليه . من سخر لها القوانين والسُنن حتى تنمو وتنبت وتزهر وتورق وتثمر؟ من غير الله سبحانه وتعالى .

من الذي ذلل لك الأنعام لتخدمك وهي صحيحة ، وتأكلها وهي ذبيحة ، وتنتفع بلبنها ودرها ولحمها ؟ ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَهُمْ فِيهَا مَتَّعُفٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ (يس: ٧١-٧٣) .

هذا الكون كله مسخر لك : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ (الحاثية: ١٣) ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ ﴾ ﴿ (لقمان: ٢٠) . الله هو الذي سخر لك هذه النعم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ ﴿ (إبراهيم: ٣٢) ، لكم ، الله لا ينتفع بشيء من ذلك ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ﴿ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ ﴿ (إبراهيم: ٣٢-٣٤) . كم من نعم الله سبحانه وتعالى علينا ؟

من نِعَمِ الله عليك : أن هداك للإسلام :

وأعظم هذه النعم كلها : أن هداك للإسلام ، أن جعلك مسلماً تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لا تعبد شمساً ولا قمراً ، لا تعبد جنّاً ولا بشراً ، لا تعبد ثوراً ولا بقرأ ، لا تعبد وثناً ولا حجراً ، إنما تعبد الله وحده .

أعظم النعم : نعمة الهداية للإسلام ، ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الحجرات: ١٧) ، ﴿ وَلَئِنْ كُنَّ اللَّهُ حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَةً فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٨،٧) . أعظم النعم : أن بعث لك محمداً خيراً نبياً أرسل ، وأنزل عليك القرآن خير كتاب أنزل ، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: ١٥١، ١٥٢) .  
مقابل هذا الإرسال لمحمد ﷺ - يتلو ويعلم ويزكي - اذكروا الله سبحانه وتعالى واشكروه ، ﴿ وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل: ١١٤) ، ﴿ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٧) .

هذه نعم الله سبحانه وتعالى ، فعلى الإنسان أن يعرف نعم الله في كل ذرة من الذرات . في كل شيء حوله .

**نعم لا تعد ولا تحصى :**

لو نظرت إلى نفسك . إلى جسدك ، تجد أنك تحمل من النعم ما لا يعد ولا يحصى . لو أن إنساناً قال لك : بعني إحدى عينيك وأعطيك مائة ألف ، أو خمسمائة ألف ، أو مليوناً ، أو مليونين . هل تباع إحدى عينيك ببعض الملايين؟ هل تباع العينين بعدة ملايين؟

عينك وحدهما تساويان ملايين ، فكيف بسمعك؟ وشمك ، وحواسك كلها ، يدك ، رجلك ، كل عضو من أعضائك كم يساوي؟ الإنسان إذا أصيب في كليته

ماذا يجري عليه ؟ كم يناله من الأذى بسبب الغسيل والكلية المزروعة ؟ الله سبحانه وتعالى أعطاك بدل الكلية كليتين ، وقد قال الأطباء : يستطيع الإنسان أن يعيش بسدس كلية ، ولكن الله زودك بكليتين ليكون لديك رصيد احتياطي ، لصحتك .

كم إذن قيمة هذه الأجهزة والأعضاء التي تملكها؟ بكم مليون تُقدِّرها؟ أنت تحمل ملايين وأنت لا تدري قيمتها ، وتظنُّ أنه ليس عندك نعمة من الله سبحانه وتعالى . وكثير من الناس يشكون ، ومهما أوتوا فهم لا يشبعون ولا يشكرون ، كجهنم يُقال لها : هل امتلأت؟ تقول دائماً : هل من مزيد؟

أول ما ينبغي أن تعرفه هنا : أن تقدر قيمة النعم التي تحيط بك من كل جانب ، عن يمين وشمال ، ومن فوق ومن تحت ، ومن بين يديك ومن خلفك . ينبغي أن تعرف هذه النعم ، وتعرف أنها من الله تبارك وتعالى ، هو الذي أعطى ، هو المعطي والمعطي وحده . إذا خدمك إنسان أو أسدى إليك معروفًا فاشكره ، هذا مشروع : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »<sup>(١)</sup> ، ولكن اشكر كذلك من وفق هذا الإنسان ويسره ليؤدي لك هذه الخدمة أو يسدي إليك هذا المعروف . لماذا تنسى صاحب الفضل الأول؟ لا تنس الله سبحانه وتعالى .

ينبغي أن تعترف بنعمة الله ، وتعترف بفضل المنعم ، وتفرح بما آتاك الله سبحانه وتعالى .

### روح الشكر :

شكر القلب هو روح الشكر ، وقد قيل : إن داود عليه السلام قال : يا ربَّ كيف أشكرك وشكري نفسه نعمة منك تستوجب مني شكراً جديداً؟! فقال : إذا عرفت ذلك يا دواد فقد شكرتني<sup>(٢)</sup> .

(١) رواه أحمد (٧٩٣٩) ، وقال مخرجه : إسناده على شرط مسلم ، وأبو داود في الأدب (٤٨١١) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤) ، وقال : هذا حديث صحيح ، وصححه الألباني في الصحيحة (٤١٦) ، عن أبي هريرة .

(٢) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢٤٥/٢) .

وقيل : إن موسى قال : إلهي كيف أشكرك ، وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك ، لا يجازي بها عملي كله . فأوحى الله إليه أن يا موسى الآن شكرتني<sup>(١)</sup> .

لذلك يقول الشاعر الصالح :

لك الحمد مولانا على كل نعمة      ومن جملة النعماء : قولي لك الحمد  
إذا كان شكري نعمة الله نعمةً      عليّ له في مثلها يجب الشكر  
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله      وإن طالت الآماد وأتسع العمر

**شكر اللسان :**

الاعتراف بفضل الله سبحانه وتعالى هذا هو شكر القلب . ثم يأتي عمل اللسان . عمل اللسان : أن يثني العبد على الله سبحانه وتعالى بما هو أهله ، وآية ذلك أن يقول دائماً : الحمد لله .

مما ورثناه عن المسلمين طوال العصور أن المسلم إذا سُئِلَ عن حاله يقول : الحمد لله ، وإن كان فيه ما فيه . هذا من موارثنا ومن قيمنا ، فالمسلم دائماً يستشعر بقلبه ويقول بلسانه : الحمد لله على كلِّ حال .

**الشكر في السرِّاء والضراء :**

كان النبي ﷺ إذا رأى ما يحب قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأى ما يكره قال : الحمد لله على كلِّ حال »<sup>(٢)</sup> . يعني على السرِّاء وعلى الضراء . الإنسان يحمد الله على هذا وهذا ، لأنه لا يعرف أين يكون الخير : ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ١٩) .

وكما يقول ابن عطاء الله : « متى أعطاك أشهدك برّه ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرِّف إليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك »<sup>(٣)</sup> . إما أن يشهدك بره ، وإما أن يشهدك قهره ، فتتعرِّف على البر الرحيم أو تتعرِّف على القهار العظيم .

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد عن أبي الجلد (٦٧/١) .

(٢) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣) ، والحاكم في الدعاء (٤٩٩/١) ، وصحح إسناده ، وسكت عنه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٥) ، عن عائشة .

(٣) الحكمة الثالثة والتسعون من الحكم العطائية .

## حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ :

احمد الله دائماً . علمنا النبي ﷺ أن نحمد الله على كلِّ حال :  
إذا استيقظنا من نومنا نقول : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه  
النشور »<sup>(١)</sup> .  
إذا فرغنا من طعامنا نقول : « الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مكفي  
ولا مكفور »<sup>(٢)</sup> .

إذا شربنا الشراب البارد نقول : « الحمد الذي جعله عذبا فرائاً برحمته ولم  
يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا »<sup>(٣)</sup> .

إذا ركبنا الدابة أو الطائرة أو السيارة نقول : « الحمد لله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا  
هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف: ١٣، ١٤) »<sup>(٤)</sup> .

احمد الله دائماً ، كن من الحمّادين . من أوصاف المؤمنين : ﴿ التَّائِبُونَ  
الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ ﴾ (التوبة: ١١٢) الذين يحمدون الله على كلِّ حال ، فهذا  
هو المطلوب من المسلم ليقوم بحق الشكر .

على المسلم أن يحمد الله بلسانه ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « الطهور  
شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان »<sup>(٥)</sup> .

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٩) ، والترمذي في الدعوات  
(٣٤١٧) ، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٥١٥) ، وابن ماجه في الدعاء  
(٣٨٨٠) ، عن حذيفة .

(٢) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٩) ، والترمذي في الدعوات  
(٣٤٥٦) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٤) ، عن أبي أمامة .

(٣) رواه الطبراني في الدعاء (٨٩٩) ، وأبو نعيم في الحلية (١٣٧/٨) ، والبيهقي في الشعب باب  
تعدد نعم الله (٤٤٧٩) ، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٠٢) ، عن أبي جعفر مرسلاً .

(٤) رواه أحمد (٧٥٣) ، وقال مخرّجوه : حسن لغيره ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٢) ، والترمذي في  
الدعوات (٣٤٤٦) ، وقال : حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود  
(٢٣٢٤) ، عن علي بن أبي طالب .

(٥) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣) ، وأحمد (٢٢٩٠٢) ، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧) ، عن أبي  
مالك الأشعري .

## كلمة (الحمد) في القرآن الكريم :

الله سبحانه وتعالى بدأ كتابه بالحمد ، فأول آية في القرآن بعد البسملة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢) . وجعل هذه الكلمة - كلمة الحمد - مُفْتَتِحَ كلام أهل الجنة ، فعندما يدخل أهل الجنة يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (الأعراف: ٤٣) ، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (الزمر: ٧٤) . كما جعلها آخر دعواهم : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس: ١٠) .

## شكر الجوارح والأركان :

ثم بعد ذلك : الشكر بكيان الإنسان كله ، بجوارحه وأركانه وبدنه . عليه أن يستعمل بدنه ، ويستعمل جوارحه في طاعة الله ، ويستخدم نعم الله تعالى في طاعته والقيام بحقه ، ولا يستخدم نعمه في معاصيه .

لا يجوز أن يُنعم الله تعالى عليك بنعمة فتستخدم نعمة الله في معصية الله .

## التحذير من استخدام النعم في معصية الله :

الله آتاك مالاً ، فلا يجوز أن تستخدم هذا المال فيما يغضب الله ، في فعل الفجور وشرب الخمر ، والذهاب هنا وهناك حيث مسارح المعاصي في بلاد الكفر وغيرها .

آتاك الله العقل ، فلا تستخدم عقلك في إيذاء الناس ، ولا في طريق الشر .

آتاك الله المنصب ، فلا تستخدم نعمة المنصب في جلب المال الحرام ، وفي الإثراء بغير حق عن طريق الرشوة ، التي يسمونها عمولة ، ولا تُوَلِّ المساعدين لك من محاسبيك ، بل من الأتقياء الأمناء .

آتاك الله السيارة هذه التي قربت البعيد - بعد أن كنت تركب الحمار أو تركب الناقة - لم تصنع فيها مسماراً للأسف ، فاستخدمها في طاعة الله ، لا تستخدمها في الذهاب إلى حيث حرّم الله .

أعطيت سفينة - أو يختأ أو قارباً - فلا تستخدمها مع أصحابك في الذهاب إلى زهات يحلُّ فيها الحرام ، وترتكب فيها الموبقات .

أعطاك الله هذا التلفزيون ، فلا تستخدمه إلا في طاعة الله ، لا تستخدمه كما يفعل الناس الآن - الذين يركبون الأطباق أو ما يسمونه (الذش) وهذه الأشياء - ليجلبوا القنوات من أوروبا وغيرها ، حيث تعرض المشاهد الفاضحة ، والمناظر التي يندى من ورائها الجبين ، ولا يستحيي الناس - وعندهم الزوجات والبنات والشبان والأولاد الصغار - أن يجلبوا هذه الأشياء وهذه المحطات والقنوات التي تُروِّج الفساد وتنفق الباطل وتشيع الفاحشة وتذيع الانحلال .

اشكروا نعمة الله في التليفون ، هذا الذي يجعلك وأنت في بيتك تكلم العالم في المشرق والمغرب . لا تستخدموه أيها الناس وأيها الشبان في معاكسة الفتيات والنساء ، وفي المعاصي التي تُسخط الله عزَّ وجلَّ .

كم من أناس قلبوا نعمة الله إلى أدواتٍ لمعصية الله ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (إبراهيم: ٢٨) .

إنَّ الخطر كل الخطر : أن يستخدم الناس نِعَمَ الله في معصية الله ، وبذلك يكفرون بالنعمة فتزول عنهم .

### قانون الله في شكر النعمة وكضرائها :

إنَّ الله قد وضع قانوناً : بالشكر تحفظوا النعمة وتزويدوا بها ، وبالكفر - كفر النعمة - تزول النعمة ولا تبقى ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧) . ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢) .

ذكر لنا القرآن قصة سبأ وأهل سبأ ، وقد أنعم الله عليهم بأرض طيبة : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ: ١٥) ، ولكنهم لم يقوموا بحق النعمة ، ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ

مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿ (سبأ: ١٦) ، لماذا ؟ ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا  
الْكَافِرِينَ ﴾ (سبأ: ١٧).

إن الله لا ينزل نعمة على الناس ابتداء ، إلا إذا انصرفوا عن الصراط . إلا إذا  
كفروا بالنعمة . . . إلا إذا لم يعرفوا قدر النعمة وقدر منعمها .

### هل أدينا شكر نعمة الله تعالى ؟

ما أعظم نعمة الله علينا نحن المسلمين ، نعم كثيرة ولكن هل أدينا شكرها؟ هل  
قلنا : نحمد الله على هذه النعمة؟ سليمان بن داود - عليهما السلام - آتاه الله النعمة  
فشكرها وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾  
(النمل: ١٥) .

ولما تكلمت النملة وفهم كلامها : ﴿ فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي  
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ  
وَأُدْخِلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ (النمل: ١٩) . اعتبر النعمة عليه نعمة ،  
والنعمة على والديه نعمة أيضاً ، كما أن النعمة على الأولاد نعمة . إذا رزقك الله  
أولاداً نجباء فهم نعمة ينبغي أن تشكر الله سبحانه وتعالى عليها . نعم الله كثيرة  
وحيثما جاء سليمان عرش بلقيس من اليمن قبل أن يرتد إليه طرفه قال :  
﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ  
شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل: ٤٠) .

### منفعة الشكر عائدة إلينا في الدنيا والآخرة :

إذا شكرنا الله فمصلحة الشكر عائدة إلينا ، عائدة إلينا في الدنيا قبل الآخرة :

في الدنيا : حفظ للنعمة وزيادة فيها ، كما قال الشاعر :

إذا كنت في نعمة فارعها      فإن المعاصي تزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الإله      فشكر الإله يزيل النقم<sup>(١)</sup>

(١) من شعر علي بن أبي طالب .

وفي الآخرة : إذا شكرنا الله سبحانه وتعالى أمنا من العذاب ، يقول الله تعالى :  
﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

(النساء: ١٤٧).

الله سمى نفسه (شاكراً) و(شكوراً) ، ويريد منا أن يكون كلُّ منا شاكراً وشكوراً،  
وما أجدرنا أن نشكر نِعَمَ الله تبارك وتعالى ، وأن نتأمل في هذه النعم ، وهي والله  
كثيرة وكثيرة ووفيرة .

دخل أحدهم على بعض الصالحين ، وقد نال المرض منه كلَّ نال ، ولم يبق  
في جسده قطعة إلا وفيها ألم ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني ممَّا ابتلى به  
كثيراً من خلقه . فقال : يا هذا ، وماذا عافاك منه بعدما أنت فيه؟ كل جسمك  
أوجاع وآلام وتقول : (الحمد لله الذي عافاني ممَّا ابتلى به كثيراً من خلقه)! قال :  
يا هذا ، حسبه أن جعل لي لساناً يذكره وقلبا يشكره .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الشاكرين ، وأن ينعم علينا بالمزيد ،  
وأن يجعلنا أهلاً لنعمته ، إنه سميع قريب .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ،  
وادعوه يستجب لكم .

**الخطبة الثانية :**

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

**شكر الإنسان أخاه الإنسان :**

شكر الله تبارك وتعالى يقتضي أن يشكر الإنسان أخاه الإنسان إذا قدم إليه  
معروفاً ، أو أسدى إليه خدمة ، فهذا من شكر الله تبارك وتعالى . ولذلك قال  
النبي ﷺ : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »<sup>(١)</sup>.

(١) سبق تخريجه ص ٢٣٢ .

وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ لَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ (لقمان: ١٤).  
فوالدك لهما فضلٌ ولهما حقٌّ بعد الله تبارك وتعالى ، فَقَرَنَ اللهُ شكرهما بشكره ،  
وهذا دليل على أن شكر العباد مطلوب .

ولهذا جاء في الحديث : « مَنْ صَنَعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفًا ، فَقَالَ لِصَاحِبِهِ : جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا ،  
فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ »<sup>(١)</sup> . أَقَلَّ مَا يَشْكُرُ بِهِ الْإِنْسَانُ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَكْفِئَهُ  
بِالْمِثْلِ ، أَنْ يَدْعُو لَهُ وَيُثْنِيَ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُ : جَزَاكَ اللهُ خَيْرًا ، وَمَنْ قَالَ : جَزَاكَ اللهُ  
خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ .

\* \* \*

---

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٥) ، وقال : حديث حسن جيد غريب ، والنسائي في الكبرى  
في عمل اليوم والليلة (٩٩٣٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٦٨) ، عن  
أسامة بن زيد .